

الأمثال الشعبية والضبط الاجتماعي

د. غني ناصر القرشي

قالت العرب (المثل في الكلام كالملح في الطعام)، فالأمثال جزء لا يتجزأ من حياة كل شعب وتاريخه، أنّها فكر جماعي توجد في لغة كل شعب وتاريخه تعكس تجاربه في أدوارها التاريخية المتلاحقة، بأبنيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والفكرية عموماً، وتحمل في مكوناتها طبيعة العلاقات الاجتماعية وتكشف بدلالاتها عن أحكام القيم السائدة في المجتمع، فغدت إطاراً مرجعياً للسلوك يعتمده الإنسان، تبرز قيمتها في مواجهة المشكلات، بوصفها جزءاً من الذاكرة الجماعية.

لهذا تعد الحكم والأمثال والأقوال المأثورة آليات ضبطية عرفية هامة للسيطرة على الرأي والسلوك. وتستخدم بوصفها إطار مرجعي لتحديد سلوك الأفراد وتوجيهه نحو خبرة اجتماعية عاشتها أجيال واختبرت نجاحها، لذا تمثل نوعاً من السلطة الأدبية تستمدّها من فكر الجماعة ومن منطلق العقل الجمعي، وعلى هذا الأساس فإنّ الأفراد يستشهدون بها في كتاباتهم وأحاديثهم اليومية، ويدعمون بها آرائهم وحججهم، ويعتمدون عليها في تبرير كثير من أعمالهم. والأمثال الشعبية تقوم بدور هام في الحياة الإنسانية بما لها من قيمة تربية وتهذيبية كبرى، لذلك من الخطأ أن ينظر إليها على أنّها مجرد شكل من أشكال الفولكلور، أو مستند أنثوغرافي خاص بأحوال شعب ما، لكنّها في الواقع عمل كلامي يدعو قوة معينة إلى التحرك، وفي اعتقاد الذين يصدر عنهم هذا الكلام، أنّه يؤدي إلى أقوى أنواع التأثير في مجرى الأمور وعلى السلوك الإنساني.

والأمثال الشعبية وليدة البيئة التي نشأت فيها، فمثلاً أمثال أبناء الجزر والسواحل مصبوغة بحياة البحر بما فيه من صيد وسفن وصراع مع الأمواج واغتراب عن الأهل من أجل لقمة العيش. كذلك فإنّ أمثال أهل الصحراء ترسم لنا صورة عن حياة أبناء البادية بما فيها من تنقل وراء الماء والعشب وبما تضم من صور يغلب عليها الصراع والصبر وقوة الاحتمال. بينما نجد أنّ الأمثال التي تعبر عن حياة الفلاح يغلب عليها طابع الزراعة والحراثة بما توحيه من حياة الاستقرار بين الأسر ونظرة التفاؤل للمستقبل.

ومن ناحية أخرى فإنّ الأمثال الشعبية تبين لنا أنواع المهن السائدة في مجتمع ما فأصحاب الحرف مثل: النجارين والحدادين والسباكين يؤلفون الأمثال من واقع مهنتهم وكذلك الزراع

والعاملين في البحر والتجار وأصحاب الحوانيت مضافاً إليه ما يمكن أن تسهم به ربات البيوت لاسيما كبار السن من النساء بما لهن من حنكه ودراية بالحياة.

وقال المبرد في وصف المثل: المثل مأخوذ من المثل وهو الشبيه وهو: قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه. وقال: أمثل من فلان: أي أشبهه به. وقال آخر: والمثل في الكلام وهو: أن يذكر لحال من الأحوال ما يناسبها ويشابها ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفياً وهي عبارات قصيرة ترسلها البيئة الشعبية التي انبثقت عنها وتدور على ألسنتها دون أن تبدل نصها أو تحرفه، وهي غالباً ما تكون مرتبطة بحادثة أو قصة مؤثرة فيخرج المثل ليلم بالحادثة في كلمات قصيرة يسهل حفظها وتداولها بين الناس.

وقال أبو نصر الفارابي في تعريفه للمثل: (والمثل ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتدئوا فيما بينهم، وقنعوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتنع من الدرر، ووصلوا به إلى المطالب القصية وتواصلوا به عند الكربة وهو من ابلغ الحكمة لان الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير بالغ المدى في النفاسة).

ويمكن تلخيص أهمية الأمثال في أنها: بشرية وواقعية تتحدث عن السعادة والشقاء، والغنى والفقر، واليسر والعسر، والجمال والقبح، والقوة والضعف والكرم والبخل.. الخ من جوانب الحياة الإنسانية. كما أنها من الناحية العملية تريح النفس وتواسيها بما تتضمنه من حكمة وفلسفة عملية. هذا فضلاً عن ما تنطوي عليه من أحكام خلقية، فهي تستقبح الرذيلة، وتمجد الفضيلة بالعبارة الصريحة، أو بالكتابة والعبارات المفعمة بالسخرية.

لذا نرى أن للأمثال تأثيراً سحرياً على تفكير الناس وتصرفاتهم، فهي سريعة النفاذ إلى العقول والنفوس لأنها تكون في الغالب قصيرة واضحة، موسيقية التركيب، تغلب عليها روح الفكاهة والخفة، ذات وقع طيب على السمع. وتلك هي أسباب تساعد على انتشار المثل وسرعة تداوله. والبشر بطبعهم يميلون إلى كل ما هو ظريف ومختصر لا طويل وممل فربما كلمات بسيطة يتضمنها مثل تؤثر في النفس أكبر من حديث طويل منمق. كذلك فإن المثل بحكم كونه نابغ من واقع البيئة فإنه ينتشر فيها ويسرى بين أفراد المجتمع كما يسرى الدم في العروق فهو منهم وإلهم. ومن خلال تلك الأمثال تترسخ القيم الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية في المجتمع، وكل ذلك يتم بطريقة عفوية وطوعية. وهكذا تصبح أمثال الأمم مصادراً هامة للمؤرخ وعالم الاجتماع والدارس في علم الأخلاق إذا ما اتجه أحدهم لدراسة المجتمع وفي أي جانب من حياته.

وهذه الأمثال والأقوال منها يتصل بالنواحي السياسية مثل قولهم: (أفة الجند مخالفة القادة) ومثله: (الناس على دين ملوكهم) وقولهم: (صوت الشعب صوت الله)، أو يتصل بالنواحي

الاقتصادية مثل قولهم: (القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود)، وقولهم: (حب المال أصل الشرور جميعاً)، وقولهم: (الطائر المبكر يفوز بالدودة) و(اللي ما يأكل بيده ما يشبع)، و (اللقمة تدفع النقمة) و(مد رجلك على قد لحافك) ومنها يتصل بالنواحي الأخلاقية مثل قولهم: (صون رزقك ولا تخون جارك) وقولهم: (خَيْك ولد أمك حليبه صافي... يقطع معاك البر حتى حافي) وقولهم: (الصديق وقت الضيق) وقد يسودها الطابع الجمالي مثل قولهم: (لبس البوصة تبقى عروسه)، و(الفلوس تجيب العروس)، وقولهم: (اللي مراته قصيرة يفرح ويقول صغيرة) و (من كبر بختي جت كنتي بنت أختي)، أو يسودها الطابع الديني حيث تكون أمضى تأثيراً في النفوس، وتعد ضابطاً قوياً لأنها تستند على أساس قوي يدعمها ويشد من أزرها مثل قوله ﷺ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وقوله ﷺ أيضاً: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾، وفي قوله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ وقوله ﷺ أيضاً: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾. وغيرها من الآيات الكريمة(*) والأقوال ذات القدسية في نفوس الأفراد حتى أصبحت جزءاً من سلوكهم لاسيما في المجتمعات ذات الحضارات العريقة مثل المجتمع العربي واليوناني والصيني والهندي ..الخ.

ونورد هنا مجموعة من الأمثال الشعبية العربية ذات الأغراض المتعددة والتي تصب جميعها في مجرى الضبط الاجتماعي وعلى النحو التالي(**):

* الناس بالناس والكل بالله: أي أنّ الناس محتاجون إلى التكاتف والتعاون من الناس فلا غنى عن لبعضهم عن البعض الآخر لارتباط مصالحهم من تجارة وصناعة وزراعة فالإنسان ناقص في نفسه مكمل له الإنسان الآخر فحاجة التاجر للعامل مثل حاجة العامل للتاجر وقس عليه ما شابهه وكلهم محتاجون إلى رحمة الله وتسهيل كل صعب في طريق حياتهم، فعليهم من أوجب الواجبات أن تكون قلوبهم متعلقة به فلا نفع ولا ضرر ولا خير ولا شر إلا بيده سبحانه وتعالى.

* اشتر يوم ما تبغي تشتري، وبع يوم ما تبغي تبيع: هذا المثل جاء مرشداً وحافزاً للإنسان على البيع والشراء لأنك قد تصادف سوقاً لسلكك لم تكن لك في حسابان ورب كاسدة رائجة يوماً من الأيام.

* الشيب ولا العيب: يعني أنّ كبر السن مع المحافظة على الأخلاق لا يضر الإنسان، ولكن اكتساب العيوب وخسيس الأفعال هو الذي يحط من شرف الإنسان بغض النظر عن سنه.

* الشيخ من شاخ على نفسه: يعني أنّ الحاكم من استطاع أن يحكم نفسه ويقومها ويوجهها إلى الطريق المستقيم لأنّ الإنسان يستطيع تقويم غيره بإحالتة إلى المحاكم والانتصاف منه له ولكن قد لا يستطيع أن يقوم نفسه.

* لو تجري جري الوحوش غير رزقك ما تحوش: وهو مثل يدل على القناعة والاكتفاء بالرزق المقدر.

* حط رأسك في الخداع واسلم من الصداع: أمر بتجنب مشكلات الناس والبعد عنها فإنَّ في البعد السلامة. والخداع: المخدع محل النوم وهو كناية عن الوحدة والتغافل وتجاهل ما حولك من مشكلات، والصداع: ألم الرأس وهو كناية عن ألم النفس من معاناة الوقوع في المشكلات.

* عليك بالدرب لو طالت وبنيت العم لو بارت: المثل يحث الناس على سلوك الطرق المعبّدة للسير فهي أسلم وأقرب للنجاة، وعليك بزواجك من بنت عمك لأنَّها رحمك ولو كانت كاسدة، ويشير بالدرب إلى طلب الحاجات من دروبها أي من الوجوه الموصلة إليها، وبنيت العم إلى المحافظة على أرحامك ورعايتهم بقدر استطاعتك.

* قطرة على قطرة تصير غدير: مثل يدعو على المثابرة والجد والعمل المتواصل.

* يد وحده ما تصفق: وهو مثل يضرب في أهمية التعاون بين الناس.

* اتبع الكذاب لبيت أهله: وهو مثل يدعو لتحقير الكذاب والكذابين.

* اخطم على عدوك جيعان ولا تخطم عليه عريان: بمعنى إذا مررت من أمام عدوك جوعان فهو لا يدري بمأساتك أمّا إذا مررت من أمامه عرياناً أي غير مستور فقدمت بالتشهير بمأساتك وشمت بك عدوك. أنّها حكمة ذات مغزى كبير.

* اللي ما عنده حيله يلعب ليله: وهو مثل يدعو للعمل والابتعاد عن الفراغ والبطالة.

* لسانك حصانك إنَّ صنته صانك وإنَّ هنته هانك: أي أنّ لسانك سياج حصانك وكرامتك إنَّ صنته وحفظته صان كرامتك، وإنَّ أهنته بالقول القبيح واللغو الباطل أهانك وأضاع كرامتك وأذاك.

* دق أبيضينك وخذ سهمك: جاء المثل للحث على العمل وعدم الاتكال وتحمل المنة من الناس.

* اتق شر من أحسنت إليه: هذا مثل عربي معروف ومعناه إنَّ الإنسان قد يسدي معروفاً لشخص ثم يجد إنَّ هذا الشخص لم يكتفِ بمقابلة هذا المعروف بالنكران فحسب بل إنَّه يعمد إلى الإساءة إلى من أحسن إليه. وعليه فيجب على الإنسان في هذه الحالة أن يكون حذراً تجاه من يقدم لهم المعروف، وحذراً أيضاً تجاه من ينكرون المعروف ويحاولون المساس به. ومن أمثال العرب بهذا المعنى:

أعلمه الرماية كلَّ يومٍ

فلما استدَّ ساعدهُ رماني

وكم علمته نظم القوافي

فلما قال قافيةً هجاني

في نهاية هذا المقال نقول: المثل الشعبي هو قول ينتج عن تجربة ويتفق جميع الناس ضمناً على صحته وصدقه، لذلك نرى الناس تستفيد كثيراً من الأمثال الشعبية ومنهم من يعدّها منهج حياة، لأنّ الجملة لا تتحول إلى مثل إلاّ بعد مخاض زمني طويل تثبت فيه أنّ رأيها صائب نظرياً وعملياً؛ ولعلنا لا نغالي إذا قلنا: أنّ الأمثال الشعبية بمثابة دستور غير مدون يعبر عن تجارب العامة وينظم حياة الفرد والجماعة وعلاقتها ويصور مواقفهم من مشكلات الحياة ويحمل بين دفتيه قلائد ثمينة من الحكمة المجربة والقاعدة الحياتية المنتقاة والمبدأ السلوكي الذي اختاره المجتمع لنفسه وارتضاه وخضع له. ولا تزال الأمثال - رغم تأريخها الطويل - تحتفظ بدفئها وسحرها وقوة تأثيرها في حركة الحياة البشرية، ذلك لأنّها من صنع الشعب الذي هو صانع التاريخ ومحركه وواضع الأسس الحضارية للمجتمع الذي يعيش فيه، ولأنّها في أحيان كثيرة تحل عقدة قد لا يحلها الجدل الحاد الطويل وقد تدخل في الخصومات على أنّها قانون مجرب لا يحتمل النقاش ولا يجوز تجاوزه أو التعاضى عنه.

ومن هذا المنطلق ندعو الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى دراسة الأمثال الشعبية وتحليلها اجتماعياً للوقوف على مدى اتصالها بحياة الناس في جميع وجوهها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعقائدية... الخ في مناطق محددة من البلاد، وتحديد ملامح شخصية الفرد من خلال الأمثال الشعبية. كذلك التعرف على دور الأمثال الشعبية في رسم معالم الحياة الاجتماعية ورصد أنماط السلوك الإنساني وتقييمه، والوقوف على دورها في ضبط إيقاع الحركة الاجتماعية للمجتمع.

الهوامش والمراجع:

- ١- معن خليل عمر، البناء الاجتماعي: أنساقه ونظمه، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٩.
- ٢- فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية، ط٢، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
- ٣- ريم أيوب محمد، مضامين الأمثال الشعبية، دراسة اجتماعية - تحليلية للأمثال الشعبية الموصلية، إشراف شفيق إبراهيم صالح الجبوري، جامعة الموصل، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، ٢٠٠٤، (رسالة ماجستير غير منشورة).

٤- غني ناصر حسين القريشي، الضبط الاجتماعي، دار ومكتبة صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٠.

(*) إنّ ما ذكر عن الآيات القرآنية أعلاه لا يصرح القرآن الكريم بأنها أمثال، ولم ترد فيه حكاية لأمثال شائعة، وإنما هي أمثال في نظر العلماء، من حيث ما ورد فيها من معنى قريب الصلة بمعاني أمثال معروفة سائرة. ومن هنا سميت أمثالاً كامنة. للمزيد من المعلومات ينظر عبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها في الآداب السامية القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.

(**) للمزيد من المعلومات يمكن الدخول إلى WWW.alamuae.com